

## خامساً . خطاب النبوءة

إن الفكر السياسى فى مصر العديمة لم يخلُ من هذا النوع المنالى من الخطاب الذى يحلم أصحابه من الحكماء بدولة مثالية يحكمها حكام فضلاء مثاليون ويسودها روح المحبة والعدالة والنظام. وقد ارتبط ظهور هذا النوع من الخطاب أيضا بفترات الانتقال النى كان يسودها الاضطراب والقلق والثورات الاجتماعية . وقد ظهر خطاب النبوءة مفترنا بخطاب الشكوى والتمرد ؛ فإذا كان الثانى هو خطاب الشعب إلى السلطة مطالبا إياها بتحقيق العدالة والنظام وهو خطاب أميل إلى علم السياسة منه إلى فلسفة السياسة باعتباره يعوم على توصيف ما هو كائن من أحوال سياسية والتعبير عن ما فى هذه الأحوال السياسية والاجتماعية من اضطراب ومظالم وفساد ، فإن الأول هو أيضا صورة من صور خطاب الشعب إلى السلطة ولكن من يقوم به هذه المرة ليس فردا عاديا كالقروى الفصيح أو غيره ، بل جاء هذا النوع من الخطاب على لسان الحكماء .

وإذلك كان الخطاب هنا أميل إلى فلسفة السياسية ، حيث لم

بعد مجرد خطاب يجار بالشكوى ويصف الحال البائسة التي يعيشها الناس ويشرح صور الفساد التي استشرت في المجتمع ، بل ارتفع من هذه الشكوى وتوصيف الأحوال القائمة إلى المطالبة بصورة أمثل للحكم وللدولة ؛ فالحاكم لابد أن يكون قوياً عادلاً كريماً والدولة لابد أن يسودها الماعت ويستقر بها النظام .

ولاشك أن هذا الخطاب الذي تنبأ فيه بعض حكماء مصر القديمة بما سيكون عليه حال الدولة المصرية في المستقبل لم يأت من فراغ ، لأن الحكيم الذي تنبأ بصورة الحكم الأمثل والنظام العادل المستقر الذي يقوده ملك قوى عادل إنما بنى توقعاته على ما استقر في التاريخ المصرى القديم وتغلغل في وجدانه السياسى من أن الدولة المصرية تكون قوية ومستقرة حينما يعود إليها كل أركان "الماعت" ، وأنه إذا كانت الدولة في هذه الأيام التي يعيشها تمر بفترة من القلق والاضطراب والفوضى السياسية والتسيب الأخلاقى والانهايار الاجتماعى ، فإن حكمة التاريخ المصرى القديم نقول إن هذه الفترة من الاضطراب وعدم الاستقرار لابد أن يعقبها فترة الاستقرار وعودة لقيم العدالة والنظام ، كل ما هنالك أن مصر تحتاج لهذه الشخصية الحاكمة



ويغلب على الظن أنه كان ذا صلة ما بمناصب اللنا وأنه نجح بعد جهد في أن يبلغ صوته إلى أهل السلطة ويبدو من بردته أنه ربما قابل الفرعون نفسه . ويبدو أيضاً أنه كان صاحب آراء إصلاحية عبر عنها في هذه البردية . وحفظها عنه المصريون وردها الوطنيون المصريون أجيالاً طويلة من بعده . ثم سجلوا قصته وآراءه على صفحات البردى . وبقت صورة من صورها في بردية كتبها أحد أدباء الدولة الحديثة وتعرف الآن اصطلاحاً باسم " بردية ليدن " بعد أن انتقلت حوزتها إلى متحف ليدن (١٢٣) . وقد أطلق برستيد على هذه البردية اسم تحذيرات إيبور (١٢٤) ، وأطلقت عليها كلير لالويت " مرنيات إيبور " (١٢٥) . وإن كان الأصدق تعبيراً عن مضمونها أن نطلق عليها " تحذيرات ونبوءات إيبور " فالنص يصف حالة الفوضى الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عمت مصر في أعقاب اضطرابات الثورة الاجتماعية التي شهدتها البلاد مع نهاية عصر الدولة القديمة وإبان مرحلة الانتقال الأولى حول عام ٢١٩٠ - ٢٠٧٠ ق.م. ويشتمل على ستة أجزاء أو أدوار تبدأ كلها بكلمة أولى واحدة تتكرر كالأزمة في كل مقطع من

المقاطع هي كلمة " انظر " أو "انظروا" وعقب هذه الكلمة يورد إيبور حالة من حالات الاضطراب والفوضى ويصف حالة اليأس التي عمت البلاد وظهرت على وجوه المواطنين . ويتدرج بنا النص من وصف لهذه الحالة المضطربة اليائسة إلى التحسر على التوازن المفقود للمملكة المستقرة، ثم ينقل من هذا أو ذاك إلى التنبؤ والحلم بمستقبل أفضل ستعود فيه حياة المصريين إلى سابق عهدها ، تلك الحياة المستقرة - المرحلة على ضفاف النيل . (١٢٦)

بنقسم النص إلى قسمين رئيسيين ؛ يقدم فى أولهما عبر الأدوار الخمسة الأولى وصفا أدبيا دقيقا للحالة التي آلت إليها البلاد فى عصره فى مختلف جوانب الحياة ، ويقدم فى الدور السادس والأخير أماله وتنبؤاته بخصوص المستقبل .

ويبدو من ذلك أنه يركز على وصف الحالة القائمة بصورتها اليائسة القائمة . ويلاحظ أنه يركز أكثر على تصوير ملامح لنورة طبقية قد حدثت وترتب عليها تدمير البنية الاجتماعية وانقلاب الهرم الاجتماعى . ويعبر إيبور بوضوح عن ذلك فى قوله :

" انظروا إذن ، فالرجال المفلسون صاروا أصحاب ثروات .  
ومن كان يتعذر عليه أن يصنع لنفسه زوج نعال يملك منها أكواماً .  
انظروا إذن ، إن خدمهم مهمومو القلب وعظماء الأمم لم  
يعودوا يختلطون برجالهم ليفرحوا . . .

انظروا إذن ، الأغنياء ينتحبون والمعوزون في فرح ، وكل  
مدينة تقول : دعونا نطرد الأقوياء من دارنا (١٢٧) .

انظروا إذن ، إن جسد هذه السيدات النبيلات يعانى من  
الأسمال التى يرتدينها وقلوبهن مغمومة عندما يقوم المرء بنحيتهن .  
انظروا من كانوا يشيدون المنازل باتوا الآن يعملون فى الحفول  
. من كانوا فى قارب الإله بانوا الآن يساقون للعمل على متنه (١٢٨) .

انظروا إذن ، لا يمكن التمييز بين ابن الرجل الطيب المولد  
من البائس . . . انظروا إذن ، الكبار والصغار يتمنون الموت ،  
ويقول الصبية الصغار : ما كان ينبغى لأبى أن يمنحنى الحياة (١٢٩) .

انظروا إذن ، العظماء جوعى وبتألوم ، ولكن الخدم أصبح  
لهم من يخدمهم . . . انظروا إذن ، الناس يركضون ويتصارعون

---

للتزود بالطعام . الرجل الثرى يسرق ويتم الاستيلاء على جميع ما يملك (١٣٠) .

انظروا ، ذلك الثرى الذى لم يكن فى إمكانه أن يصنع لنفسه تابوتاً ، بات يمتلك الآن مقبرة . انظروا ، إن السيدات الكريمات الأصل يرفض على الألواح والأعيان ألحقوا بالحوانيت . ولكن الذى لم يكن فى مقدوره أن ينام ولو على صندوق يمتلك الآن سريراً .

انظروا ، الرجل الثرى فيما مضى يبيت الآن ظمأنا ، أما الذى كان فى الماضى يستجدى رواسب الأفداح فقد أصبحت الجعة عنده من الآن نقيص عن الحاجة (١٣١) . انظروا من لم يكن عنده مجرد علبة ، فى حوزته صندوق حلى . ومن كانت ترى وجهها فى الماء تمتلك الآن مرآة من النحاس (١٣٢) .

انظروا من لم يكن يمتلك مجرد ثورين مقرونين صار فى حوزته الآن فطيع . ومن لم يكن فى استطاعته أن يجد ثيرانا للحرث يمتلك الآن المواشى .

انظروا من لم تكن عنده بذور يملك مخازن غلال ، من كان  
يجلب لنفسه قمحاً يقترضه يقوم هو الآن بنوزيعه .

انظروا من لم يكن له مجرد جبران ، صار الآن صاحب خدم  
ولكن نبيل البارحة ينحز بنفسه مهامه " (١٣٣) .

إنن لقد صور إيبور بهذه الصور المتتالبة عبر هذا النص  
ملاحح التغييرات الاجتماعية التي حدثت إبان الفترة التي يصور  
أحوالها ، ولا شك أن أبرز هذه التعبيرات نلخص في تلك الفوضى  
السياسية التي ترنب عليها نغير أحوال الناس فأصبح الغنى فقيراً ،  
وأصبح الفقير ثرياً ! وإذا تساءلنا : كيف حدث ذلك ؟! قلن بجد إجابة  
شافية واضحة من خلال النص نفسه اللهم إذا عزونا ذلك إلى  
الانهيار السياسي وفقدان السلطة المركزية للدولة لهيبتها في نفوس  
المواطنين مما ترنب عليه انتشار أعمال اللصوصية والسلب والنهب  
في طول البلاد وعرضها ، فضلاً عن تسرب عناصر أجنبية كثيرة  
إلى داخل البلاد . وقد عبر إيبور إجمالاً في مطلع النص الموجود  
بين أيدينا رغم ما فيه من فجوات عن هذه العوامل حينما يقول " . .  
يقول البوابون : إننا راحلون للنهب . . ولم يعد الغسال يفكر في

حمل حملة . . واصطف صيادو العصافير في وضع المعركة . .  
ويحمل أهل الدلتا التروس . . وينظر المرء إلى ابنه على أنه عدوه .  
تعال واستول . . الإنسان القوى الشكيمة يسير مغموماً بسبب ما حل  
بالبلاد . . وفي كل مكان يختلط الأجانب بشعب مصر حيث يصعب  
التمييز بينهم " (١٣٤) .

وقد نتعرف على بعض تفاصيل هذه العوامل التي أدت إلى  
هذه التغيرات الاجتماعية الحادة بين ثنايا و فقرات النص . فقد قال  
إيبورر ضمن ما قال " لقد ابتليت البلاد بعصابات اللصوص وعلى  
المرء أن يذهب للحرث ومعه ترسه " (١٣٥) . كما قال " انظروا . .  
فالسلب . . في كل مكان والخادم محمل بما استولى عليه " (١٣٦) .  
وقد انتشرت هذه الأعمال في السلب والنهب لدرجة " أن قاعة  
المحفوظات الكبرى قد سلبت مدوناتها ، وإن مكان الأسرار قد جرد  
الآن من محتوياته " ، كما " أصبحت المكاتب الإدارية مفتوحة  
واختفت منها السجلات " ، و " قد قتل الكتبة واختفت مدوناتهم " كما  
" أن كتبة مكتب الحبوب قد انتزعت أيضاً دفاترهم " (١٣٧) .

وبالطبع فقد أدى كل ذلك إلى توقف حركة الدولة تقريبا وأصبحت البلاد بالفوضى السياسية التساملة . إن حركة الحكومة المركزية قد سلت ولا أدل على ذلك من قول إيبور : " إن فوايسن القاعة الخاصة (قاعة العدل) <sup>(١٣٨)</sup> قد طرحت خارجا بحيث يدوسها الناس فى الشوارع ويمزقها المعوزون فى الطرقات " <sup>(١٣٩)</sup> و " أن المجلس الخاص العظيم قد نم اجتياحه والمعوزون يروحون ويجيئون فى البيوت العظيمة " <sup>(١٤٠)</sup> . فضلا عن " أن المفر الملكى قد دمر فى ظرف ساعة واحدة . وأن أسرار البلاد التى كان يجهل الناس حدودها كتف عنها الحجاب " <sup>(١٤١)</sup> ، وما كان يملكه العصر الملكى له الحياة والصحة والقوة قد تم نهبه " <sup>(١٤٢)</sup> .

وبالطبع فقد صاحب هذه الفوضى السياسية والاجتماعية والأخلاقية انهيار دعائم الاقتصاد المصرى فالنيل " صار نهرا من دم ، وإن شرب منه أحد فسيبصقه لأن هذا الدم دم بشرى والناس ظمأى للماء " <sup>(١٤٣)</sup> ، وأصبح الناس يفتقرون إلى الذهب وأبصا إلى المواد اللازمة لمختلف الأعمال " <sup>(١٤٤)</sup> . وفى " الوحه الفبلى لم تعد الناس تدفع الضرائب بسبب التمرد . . إننا نفتقر إلى الفاكهة وفحم

الخشب ومختلف أنواع الخشب . . إن كل شيء قد تهتم " (١٤٥) ،  
إن الأشجار قد أتلفت والأغصان تجردت " (١٤٦) ، " لقد أتلفت  
الحبوب على جميع الدروب " وأصبح الناس " محرومون من الثياب  
والعطور والزيوت . وكل واحد يقول : لم يعد يوجد شيء . الحانوت  
خالٍ وحارسه ممدد على الأرض وسط العشب " (١٤٧) . " إن البشر  
يتغذون على الأعشاب ، ويشربون الماء فالقواكه والنباتات والطيور  
ذاتها لم تعد موجودة . . . " (١٤٨) . ولقد أثر هذا الانهيار الاقتصادي  
بالطبع على أنحاء البلاد حتى " لقد روع القصر الملكي من جراء  
المجاعة " (١٤٩) ، ولم " يعد الحرفيون يجدون عملاً " (١٥٠) .

وهكذا فقد تصاعدت نغمة البؤس واليأس عند إيبورور في  
وصفه لحال البلاد الذي يبعث على الغم والصبر لدرجة جعلته في  
بعض ما قال يكاد يفقد الثقة في قومه ويصفهم بأحط الصفات " فلقد  
انحدر الناس إلى أسفل سافلين " ، وذلك لأن بعض الأشقياء قد  
اختطفوا الملك " (١٥١) . " وحرموا البلاد من الملكية " (١٥٢) .

فلقد اعتبر إيبورور أن بلوغ الناس هذه المرتبة المنحطة من  
الأخلاقية إنما يرتبط بتعديهم على ملكهم وعلى قصره وعلى أولاده!

إذ إن تعدى الناس على مليكهم فى رأيه يجعل منهم أشبه " بقطيع يضل فى غياب راعبه " (١٠٣). إن إيبور لم ينس أن الملك والملكية واحترامهما واجب على كل مواطن مصرى باعتبار أن الملك لا يزال رغم كل شىء رمز البلاد وعنوان استقرارها وهبتها !

وعلى أى حال ، فإذا كان إيبور قد بالغ فى عرض الصورة الفاتمة لأحوال البلاد الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية إلى هذا الحد الذى جعله يقول أن الإنسان " بسير مغموما بسبب ما حل البلاد " ، و " أن الشقاء أصبح يعم البلاد بأسرها " (١٠٤). وأن " قلب الحيوانات صار بيكى أيضا ، وأن القطعان غارقة فى النواح بسبب أحوال البلاد " (١٠٥).

أقول إذا كان إيبور قد بالغ فى عرض هذه الصورة الفاتمة عن حال البلاد فى عصره ، فإنه لم يكن ليفقد الأمل فى مستقبل بلاده. فقد ختم نصه العريد . بالتنبؤ بالمستقبل السعيد للمملكة المصرية. وفى هذا دلالة قاطعة على أنه لم يفقد الثقة تماما فى نفسه ولا فى الإنسان المصرى الفاضل رغم كل الظروف غير المواتية أن يستيفط وأن يهب لنجدة نفسه وبلاده ليعود بها إلى سيرتها الأولى ، وليقفز بها إلى عصر جديد من الهدوء والاستقرار والنظام .

والطريف أن إيبور لم يختم نصه بهذا لخطاب التفاؤلى  
فجأة، بل استند فى حديثه عن التنبؤ بالمستقبل ، على تذكر الماضى  
السعيد لبلاده وقت أن كانت تتمتع فى سالف الأيام بالرخاء  
والاستقرار . ولنتأمل معا بعض تلك الذكريات التى برويها :

" تذكر الطيور السمينة والإوز والبط والقرايين  
المخصصة للآلهة .

تذكر النطرون الذى كان يمضغه الناس والخبز الأبيض الذى  
كان بعده الإنسان . تذكر السوارى التى كانت تقام ، وموائد القرايين  
التى كانت نفتح ، والكهنة وهم يطهرون الهياكل ، والمعبد الأبيض  
كاللبن ورائحة عطر الأفق الذكية ووفرة القرايين .

تذكر مراعاة القواعد ، والتتابع الصائب للأيام . . " (١٥٦) .

ولنلاحظ معا كيف تركزت هذه الذكريات حول الرخاء  
الاقتصادى والاستقرار الاجتماعى اللذين يقودان الناس إلى الاستمتاع  
بالحياة الدنيا ناظرين فى أمل إلى الحياة الأخرى بممارسة العبادات  
وتقديم القرايين والعناية بالمعابد والهياكل الإلهية .

ونلاحظ كذلك كيف اختتم إيبور نكرياته وتأملاته للماضى بقوله " تذكر مراعاة القواعد والتتابع الصائب للأيام " ، فهو يشير فى هذه العبارة إلى أمرين فى غاية الأهمية أولهما : أن مراعاة القواعد أى القوانين والنظام " الماعت " هو أساس كل ذلك الرخاء الاقتصادى والاستقرار السياسى والاجتماعى الذى تمتع به المصريون فى الماضى . وثانيهما : يشير فيه إلى أن تتابع الأيام على النحو السليم إنما يبشر بتكرار نفس ما حدث فى الماضى فى المستقبل .

وعلى هذا الأساس الواثق فى إمكان تكرار أحداث الماضى الزاهر فى المستقبل يتبأ إيبور بأن كل شيء سيعود إلى سيرته الأولى فى وطنه . إنه يرى بعين المستقبل الحاكم الأمثل الذى يتوق إلى قدومه ، وأن هذا الملك المثالى سيكون صورة للملك الأمثل الذى حكم مصر فى يوم من الأيام باسم إله الشمس " رع " (١٥٧) .

ولما كان إيبور يرى أن سلطة ذلك الملك - الإله المقدسة تمثل العصر الذهبى لمصر القديمة ، فإنه يبدأ فى الموازنة بين عصره الذهبى ذاك ، وبين العصر الملكى الهزيل الذى تزرع تحت عبئه البلاد فى الوقت الذى يعيشه . وهو يقول فى إطار هذه الموازنة:

" فهو يطفئ لهيب الحريق الاجتماعى ، و.تال عنه إنه راعى كل الناس ، ولا يحمل فى قلبه شرا . وحينما تكزن قطعانه قليلة العدد ، فإنه يصرف يومه فى جمع بعضها إلى بعض وقلوبها محمومة من الحزن . ليته عرف أخلاقها فى الجيل الأول، فعندئذ كان فى مقدوره أن تمد ذراعه ضده (يعنى الشر) وكان فى مقدوره أن يقضى على بذرتهم هناك وعلى وراثتهم . . فأين هو اليوم ؟ هل هو بطريق المصادفة نائم ؟ أظن أن بأسه لا يرى . . . " (١٥٨) .

إن إيبورر يقدم هنا صورة لذلك الحاكم الأمثل الذى ينبغى أن يبدأ عمله بإطفاء لهيب الثورة الاجتماعية والصراع الطبقي ، ويكون راعيا لكل الناس قادرا على جمع شتاتهم فبقيهم حالة الحزن التى وقعوا فيها نتيجة المصائب التى حلت بهم .

إنه ذلك الحاكم القادر على أن يعيد أخلاق الجيل الأول من الملوك الإلهيين الأقوياء الذين كانوا يستطيعون الوقوف ضد الشر ، إنه الحاكم القادر على القضاء على بذرة الأشرار ووارثيهم ولكن السؤال الذى يفتق مضاجع إيبورر هو : أين هذا الحاكم الأمثل ومتى يظهر ؟!

---

وهو يجيب بنفسه على السؤال في ثانيا طرحه له ؛ وهذا الحاكم الأمثل قادم بلا شك إذ ربما يكون موجودا الآن بين الناس وإن كان بأسه لم يرى حتى الآن . فعنصر الأمل في ظهور هذا الملك الصالح المنتظر عند إيبور - هو على حد تعبير برستيد - أقرب من حبل الوريد وهو أمر محقق (١٥٩) .

والطريف في الأمر أن إيبور يتنبأ بظهور هذا الحاكم الأمثل بهذه الأخلاق الطاهرة النقية ، وبهذه الأعمال الخبرة القادرة على إعادة البلاد إلى سيرتها الأولى في تطبيق العدالة والنظام وسحق الأشرار في وجود وحضرة الملك الحالي للبلاد الذي يوجه إليه خطابه وفي حضرة العديد من أفراد حاشيته .

ولقد بلغ إيبور حدا بعيدا من التعبير بجرأة وحرية أمام هذا الملك نلمسه بوضوح حينما يقول له :

" إن الأمر الملكي والمعرفة العدالة (ماعت) في قبضة يدك ، ولكن ما تضعه في البلاد هو النزاع وصوت القلاقل . . . ولقد فعلت ذلك لتشتد علينا هذه الأمور . لقد نطقت زورا وبهتانا " (١٦٠) .

إنن لقد اتهم إيبور ملكه صراحة بأنه السبب فى كل ما حدث من قلاقل واضطرابات وقوضى فى مصر ، وأنه فعل ذلك عن عمد لتشتد على رعيته الأمور ويعيشون فى هذه الحالة من الضنك والغم ، والبلاء ، والخراب القومى الشامل !

فماذا فعل الملك - الإله بيبور وهو رغم كونه أحكم حكماء عصره مجرد فرد فى رعية هذا الملك !؟ هل أنزل به غضبه الإلهى وعاقبه على جرأته فى سبابه ؟ هل ألجمه ومنعه من الكلام وألزمه مكانه كما يفعل بعض حكام اليوم فى ظل عصر يتغنون فيه بالديموقراطية والحرية !؟

أبدا ، لقد فعل الملك - الإله مع إيبور عكس ذلك تماما ؛ فقد رد على تلك الاتهامات التى وجهها إليه بالتنزع بأنه حاول قدر طاقته حماية شعبه بالوقوف فى وجه الأجانب اللذين كانوا يهاجمون البلاد<sup>(١١١)</sup>.

وقد دفع ذلك الموقف الملكى إيبور إلى التخفيف من حدة اتهاماته ونظر إلى مولاة - على حد تعبير ويلسون - بشيء من العطف حينما قال له : " إذا كنت تجهل ذلك فإنه أمر محبب إلى

---

القلب . لقد فعلت ما هو حبيب إلى قلوبهم لأنك جعلت الناس يعيشون بسبب ما فعلته ، ولكنك تغطي وجوههم خوفا من الغد " (١٦٢) .

إن إيبور يرى أن ما حدث من الملك إن كان عن حسن نية، لكن حسن النية والقصد لا يكفيان وحدهما للحكم الصالح ، والدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية ليس مبررا كافيا لأن تعيش البلاد الفوضى والاضطرابات والانهيارات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الداخل ! فالمفروض في الحاكم الصالح أن يؤمن للناس حياة الاستقرار في الداخل والخارج معا ، وأن يجعلهم على ثقة في المستقبل بتأمين حياتهم في الغد .

إن ما أود أن ألفت الانتباه إليه هنا ، هو تلك الندية في الخطاب السياسي بين إيبور وهو يمثل الشعب ، والملك الذي يمثل السلطة الإلهية المقدسة حتى ذلك الحين الذي يجري فيه هذا الحوار بين أحد أفراد الشعب وبين الملك وجها لوجه .

إن هذه الندية تكشف عن أن الانهيار الاجتماعي والسياسي الذي شهدته البلاد في هذه الفترة لم يخل من نتائج إيجابية تمثلت

---

إحداها فى هذا التقارب بين طبقة الحكام وبين عامة الشعب ، مما  
أتاح الفرصة لأن يشكو العامة سوء الأحوال وأن يسئع للملك  
وحاشيته لهذه الشكاوى وأن يحققوا فيها ، وأن ينصتوا لما يوجه إليهم  
من اتهامات وأن يردوا عليها .

إن فى هذا التقارب الاجتماعى والسياسى نوعا من الشعور  
بالمساواة الاجتماعية التى أحسن ولبسوا توصيفها فسامها  
" الديموقراطية " دون أن يقصد بالطبع هذا النوع من الديموقراطية  
السياسية ذات الرنين المثير فى عصرنا الحالى ، ودون أن يقصد  
بالطبع أن صورة الحكومة فى مصر القديمة قد طرأ عليها التغيير  
نحو ما ندعوه فى العصر الحالى بحكومة الديموقراطية . وإنما  
المقصود هنا هو ديموقراطية من نوع مختلف ، ديموقراطية  
اجتماعية مفادها أن الحواجز قد كسرت بين الحكام والشعب وأنه لم  
تعد هناك حواجز سياسية أو اقتصادية تحول بين النقاء للطرفين فى  
عصر بدأ الناس فيه سواء كانوا حكاما أو محكومين يؤمنون  
بالمساواة بين البشر فى الحقوق والفرص (١٦٢) .

إنها المساواة فى الخلق والحقوق الطبيعية وفرص الحياة ،  
وهذه هى ديموقراطية الخالق فى خلقه كما عبرت عنها أحد نصوص  
التوابيت المصرية القديمة . انظر إلى قول الإله الخالق : " لقد خلقت  
أربعة أشياء عظيمة فى داخل بوابة الأفق . خلقت للرياح الأربع التى  
يستطيع أن يستشققها كل إنسان كزميله الذى يعيش فى زمانه ، هذا  
هو العمل الأول .

وخلقت الفيضان العظيم ، وللفقير فيه حق مماثل لحق الرجل  
الغنى ، وهذا هو العمل الثانى وخلقت كل رجل مثل زميله ولم أمر  
بأنهم يعملون السوء ، ولكن قلوبهم هى التى أفسدت ما قلت ، وهذا  
هو العمل الثالث .

وجعلت قلوبهم تفكر دائما فى الغرب (\*) حتى يستمر تقديم  
القرابين الإلهية لآلهة الأقاليم ، وهذا هو العمل الرابع . . . " (١٦٤) .

إن لم تكن هذه النزعة نحو المساواة الاجتماعية بين البشر  
فى الحقوق وفرص الحياة ، ولم تكن هذه النداءات المستمرة لإعادة

(\*) " العرب " هنا إشارة إلى عالم القدر والموت .

تحقيق العدالة بين المجتمع من قبل أفراد الشعب المصرى كما بدت على لسان القروى الفصيح أو على لسان إيبور وغيرهما ، لم يكن كل هذا استثناء فى التاريخ الفكرى لمصر القديمة ، بل كان مطلباً ينم عن إدراك قوى وعميق لدى المصريين منذ فجر تاريخهم للمساواة الطبيعية بين البشر أمام الخالق ، فالجميع خلقهم الإله ، والجميع لهم حق التمتع بالحياة على نفس النحو وبنفس الطريقة .

كل ما هنالك أنه قد علت نبرة المطالبة بهذه المساواة الاجتماعية فى العصر الذى عمت فيه الفوضى . وحاول فيه بعض من فى يدهم السلطة السياسية استغلالها لتحقيق المزيد من الثروات بالاستيلاء على ثروات الآخرين واستباحة حقوقهم . إن شكاوى القروى الفصيح ما هى إلا صدى لذلك الظلم الذى استجد فى هذه الفترة من التاريخ المصرى ولم يكن موجوداً من قبل ، وكذلك تحذيرات ونبوءات إيبور كانت صدى لهذه الظروف المضطربة ورد فعل لهذا الخراب الشامل الذى حل بالبلاد فكان على الحكيم وهو صوت الشعب وضمير الأمة أن يجار بالشكوى وأن يعلن على الملأ ما كان يعتل فى نفوس كل معاصريه ، وأن يعبر عن أماني الشعب

---

المصرى فى ظهور ملك عادل يعيد الأمور إلى نصابها ، ويعدل ميزان العدل الذى مال ، ويعيد الاستقرار الذى فقد ، والعدل الذى افتقد .

والجدير بالذكر أن إيبوور لم يتوقف فى حلمه اللبوتوبى عند حد المطالبة والتنبؤ بذلك الحاكم الصالح الخبير العادل القادر على أن يلم شتات البلاد والعباد وأن يعيد الاستقرار والعدالة إلى ربوع مصر بل تعدت ذلك إلى رسم صورة مثالية للحياة السعيدة الهادئة التى يتمنى أن تعود إلى بلاده مرة أخرى . ولنتأمل معا ملامح هذه الحياة المثالية السعيدة فيما يقوله إيبوور :

" إنه لأمر طيب بالتأكد ، أن نهبط على النهر . . . إنه لأمر طيب بالتأكد عندما تكون الشباك ممدودة والعصافير ممسوكة . . إنه لأمر طيب بالتأكد . . عندما تكون الطرقات معدة للنزهة .

إنه لأمر طيب بالتأكد . . عندما تشيد أيادى الرجال الأهرامات وتحفر البحيرات وتعد بساتين الفواكه للألهة .

إنه لأمر طيب بالتأكد ، عندما يكون الناس سكارى ويشربون بقلب مبهج .

إنه لأمر طيب بالتأكيد عندما تملأ صحبات الفرح جميع الأفواه، بينما رؤساء الأقاليم يفنون هنا يشاهدون من منازلهم الأفراح العامة، وقد ارتدوا الكتان الرقيق، وأمسكوا أمامهم عصى القيادة بقلب لبي .

إنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تكون الأسرة مرتبة، ويكون مخدع كبار القوم محميا يوضع على أحسن وجه، وعندما تكون حاجة كل إنسان مكفولة بكل بساطة بحصير في الظل، والباب موصد على من يرقد في الأدغال " (١٦٥) .

إنها ملامح لحياة اجتماعية سلسة بسيطة، يعيش فيها الإنسان حرا طليقا سواء في عمله أو في قضائه لأوقات الراحة والنزهة . ولا يمكن للقارئ أن يدرك عمق مطالبة إيبورر بصورة هذه الحياة المرححة البسيطة إلا إذا أعاد قراءة الأوار والفقرات السابقة من خطابه، تلك الفقرات التي تصف كيف أن الشر وأن الأعداء كانوا يتربصون بالإنسان في كل مكان، وكيف أن الأمان قد فقد في عصر الفوضى فلم يعد الإنسان قادرا على أن يعيش حياته الطبيعية بحرية، ولم يعد يستطيع ممارسة أبسط مبادئ حياته بدون أن يواجه بالمنع أو بالمؤامرات أو بالاعتداء عليه من الآخرين !

إن صورة الحياة السعيدة التي يتمناها إيبيور هي النقيض لما كان يعاني منه الإنسان المصرى فى تلك الفترة من تقييد لحياته ومن فوضى وخراب عم أرجاء البلاد .

فكل ما يتمناه إيبيور هو أن تعود إلى الإنسان المصرى - فى ظل وجود نظام عادل للحكم يحقق الاستقرار والأمان - حياته الهانئة المرححة التى يستطيع خلالها أن يمارس هواياته فى التنزه على ضفاف النهر والصيد فى الوقت الذى يكذب فيه ويعمل فى بناء الأهرامات وحفر البحيرات وزراعة البساتين والحقول.

وما يتمناه إيبيور ليس مقصورا على عودة الحياة الطبيعية السعيدة إلى أفراد الشعب وإنما يمتد ليشمل أيضا الأسرة الملكية وأفراد السلطة التنفيذية وحكام الأقاليم. إذ يتمنى إيبيور أن يعيش هؤلاء حياتهم ببهجة وسرور وأن تملأ حياتهم من جديد صيحات الفرح وأن يعودوا إلى مشاهدة الأفراح العامة من شرفات منازلهم وقد ارتدوا أفر الثياب ممسكين بعصى القيادة فى إباء وشمم ؛ فقد حققوا الأمن للجميع ومن ثم نعمون بآثاره عليهم فيفرحون مع الشعب دون قلق أو خوف مما يعكر صفو الأفراح .

إن هذه الحياة السعيدة الآمنة لا تتحقق للحاكم دون المحكوم ،  
أو للمحكوم دون الحاكم ، فالكل ينبغي أن يعيش هذه الحياة على قدم  
المساواة ، ففي الوقت الذي ينعم فيه كبار القوم بحياتهم الفرحية  
المبهجة وبأسرتهم المرتبة الأنيقة وبيوتهم الفاخرة الآمنة ، ينبغي أن  
تكون حاجة كل إنسان مكفولة حتى ولو اقتصر على الضروريات  
دون الكماليات ، إذ ينبغي أن ينعم الإنسان العادي البسيط بالأمان  
حتى ولو كان يعيش على حصيرة في ظل شجرة ظليلة أم متشردا  
يعيش في الأدغال الموحشة . فالجميع الحق في التمتع بضروريات  
الحياة بحرية وأمان .

وما أجملها من صورة يوتوبية لحياة بشرية سعيدة يتمتع فيها  
جميع الناس بدولة مستقرة آمنة يحكمها حاكم قوى عادل ، ويعيش  
فيها مواطنون أحرار سعداء . ما أجملها من حياة يحلم بها أيبو  
العجز في عصر مضطرب سادته الدمار والفوضى !

(ب) نبوءات نفر وهو (نفرتي) :

أما النموذج الثاني على خطاب النبوءة فهي برديّة يعود

تاريخها إلى نفس العصر ونفس الفترة التى كُتب فيها إيبور برديته،  
وفد كتبها كاهن مرتل من كهنة الآلهة باسنت يدعى نفرور هو أو  
نفرتى، وقد كان يطلق عليه فى عصره " رجل الشرق الحكيم " باعتباره  
كان أحد أبناء شرق اللت حيث كانت تقع مدينة بوباسيتس (١٦٦) .

ويرجح أن البردية كتبت فى مطلع الأسرة الثانية عشرة  
حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م فى عهد الملك أمنمحات الأول . (١٦٧)  
والطريف أن الخطاب فيها يحمل صيغة التنبؤ بأيام وأحداث مستقبلية  
؛ فكاتبتها يبدأها بمقدمة توحى فى الظاهر بأنها كتبت فى عهد الملك  
سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة الذى كان ينشد التسلية فطلب من  
رجال حاشيته أن يقصوا عليه قصة نسعهه وبشرح صدره ، فذكروا  
له أنه يوجد بالخارج ذلك الكاهن المسن البارع الأنامل مرتل معبد  
الإله باسنت ، فأمر بإحضاره ، ولما حضر طلب إليه أن يفص عليه  
أقوالا جميلة تسره ، ولما سأل نفرور هو : أيحكى له عن أمور  
الماضى أو أمور المستقبل ؟ قال له : بل عن أمور مفضلة لأن ما  
يحدث فى الحاضر سرعان ما يصبح ماضيا (١٦٨) !

ولكن من الواضح كما يجمع المؤرخون أن هذه المقدمة  
التاريخية مقدمة مزعومة ولبسات صحيحة (١٦٩) ، لأن البردية نصف

الحالة التي كانت عليها البلاد في عصر الانتقال الأول مثلها في ذلك مثل بردية إيبور ، وربما كتبت بعد بردية إيبور نظراً لأن صاحبها يتتبع حرفياً باسم الملك أمنمحات باعتباره الحاكم الأمثل الذي سيخلص البلاد من حالة الفوضى وينقلها إلى عصر الاستقرار والازدهار .

ولذلك فقد قيل بحق إنها تعد من " آداب الدعاية الملكية " (١٧٠)؛ إذ ربما تكون قد كتبت بالفعل في عصر أمنمحات الأول نفسه وليس قبل ظهوره ، وإن كانت قد اتخذت تلك الصورة التاريخية التتبؤية فما ذلك إلا لكي تقنع الجموع في المملكة المصرية بأن تولى الملك أمنمحات العرش إنما كان تنفيذاً لأمر إلهي أرائنه الآلهة منذ الأزل وتتبأ به الحكماء وسمعته أذنا الملك سنفرو الذي آلهة المصريون في الأسرة الثابتة عشرة وكان له بين الناس مكانة مرموقة لم ينلها أي من الملوك السابقين (١٧١) .

ومع إدراكنا لذلك ، وتسليمنا بأن النص ربما يكون قد كتب في عصر أمنمحات نفسه إلا أننا لا نملك إلا أن نقرأه على ما هو عليه بصيغته التتبؤية ، والنص كالعادة في معظم ما ورد إلينا من

نصوص لحكام مصر القديمة وفلاسفتها لم يصل إلينا فى صورته  
الأصلية ؛ فالنسخة التى اكتشفت حديثا على يد العالم الروسى  
جولينشف W.Golenischeff (١٧٢) قد نسخها كاتب من عصر الدولة  
الحديثة ممن عاشوا فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وقد كتبها  
على بريدية قديمة من البرديات المستعملة فى تدوين حساباته الخاصة  
عندما لم يجد بريدية جديدة يكتبها عليها (١٧٣) .

ويمكن القول إنها تنقسم من حيث المحتوى إلى ثلاثة أقسام ؛  
أولها يشتمل على هذه المقدمة التاريخية للمزعموم فيها أنها قد ألفيت  
على أسمع الملك سنفرو أى قبل العصر الذى نحن بصددده بحوالى  
ألف عام ! وثانى هذه الأقسام يشتمل على وصف دقيق لحالة البلاد  
فى العصر الذى نحن بصددده أى حوالى ٢٠٠٠ ق.م قبيل نولى الملك  
أمنمحات الأول الحكم وانشغاله بتوحيدها والعمل على استقرارها .  
وثالث هذه الأقسام يقدم فيه نفر وهو تنبؤه بمقدم الملك ميني الذى  
سيوحد البلاد ويعيدها سيرتها الأول فى الاستقرار والازدهار . . وقد  
كتب القسم الثانى والثالث بصيغة المستقبل التنبؤية .

ويبدأ حديث نفر وهو فى القسم الثانى من البريدية بالحسرة  
على أحوال البلاد فى ذلك الزمان القادم الذى سينتصر فيه الآسيويون

على البلاد بقوة السلاح وينشرون للرعب فى المناطق التى يستولون عليها . وهو يصف هذا الوضع المأسوى محاولا اصطناع الشجاعة فى مواجهة الأحداث فاستجماع شجاعة المرء فى هذه الحالة مسألة ضرورية لكشف الأحداث ووصف ما سيلب بالبلاد من خراب ؛ فالصمت فى هذه الحالة " سيكون عملا سيئا " ، ومن يتحدث سيكون جديرا بالاحترام (١٧٤) .

وهو يقدم فى البداية وصفا متشائما للحالة التى آلت إليها مصر فى ظل غياب حكومة وطنية قوية " إذ لم يعد العظماء هم الذين يشكلون " حكومة البلاد " ، وما كان قد حدث فى الماضى يماثل الآن ذلك الذى لم يفعله أحد أبدا . وعلى " رع " أن يعيد الخلق من جديد . لقد هلكت البلاد بأسرها ولم يبق منها شىء . بل ولن يتبقى حتى مجرد سواد الأظافر من أقدارها " (١٧٥) . . .

" إن قرص الشمس المحتجب لن يسطع بعد ذلك حتى يمكن للشعب أن يبصر ، ولن يستطيع الناس الحياة طالما تغطيهم السحب . والبشر جميعا يصابون بالصمم بعد أن حرموا منه " (١٧٦) .

ونلاحظ في هذا العرض المتشائم للحالة التي عليها مصر في تلك الفترة كيف ارتبط عند الكاتب السياسي بالكوني . فالخراب السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي تشهده البلاد إنما سببه عدم وجود الملك العظيم من أبناء البلاد وهذا الاستثناء الذي لم يحدث من قبل هو أن يحكم الأجانب مصر وأن يتدخلوا في شئونها الداخلية ، ولذلك فلا إصلاح لهذه الحالة الفريدة من الفساد والخراب إلا بتدخل رع ، ورع في الفكر المصري هو إله الشمس ، وقد اتخذ الملوك في مصر منذ عصر خفرع لقب ابن رع وظلت هذه الفرابة الشمسية في الألقاب الملكية حتى نهاية التاريخ المصري (١٧٧) .

والمفكر المصري القديم يفصد هنا التدخل الإلهي في صورة ملك جديد من الملوك العظام الذين ينتسبون إلى الشمس . فهذا الملك- الإله القوى هو الذي سيزيل الغشاوة من على أعين الشعب فيستعيد الشعب بصره ووعيه ، فتعود الشمس نقية - قوية بلا حجب. وتعود الحياة الجميلة للناس بلا سحب تحجب عنهم الشمس سر الحياة!

إن هذه الصورة التى يرسمها نفرو وهو فى نظره بمثابة إعادة خلق جديد لبلد هلك كل ما فيه . ولم يعد بالإمكان الإصلاح إلا بإعادة تشكيل كل شيء من جديد وعلى يد هذا الملك - الإله ابن رع .

ويستمر نفرو وهو بعد ذلك فى عرض المعالم الجزئية لهذه الصورة الحالكة السواد لحالة البلاد فى عصر البلاء والفوضى ؛ فالنهر فارغ ويعبره الناس على أقدامهم ، وهم يبحثون عن الماء حتى تستطيع السفن أن تبحر عليها . إن مجرى النهر قد أصبح كالأشواطى " (١٧٨) .

و " لقد قضى على كل الأشياء الجميلة الطيبة " ، لقد حل الآسيويون الأعداء فى البلاد وانتشروا فى طولها وعرضها . ويطولهم "تهتك خصوصيات المنازل ، ويطرد النوم من العيون" (١٧٩) لقد حدث فى البلاد ما لم يكن ينبغى أن يحدث لقد أصبحت أشبه بالرجل المريض حيث تم الاستيلاء على أسلحة الحرب وأصبح الناس فى حالة حرب إذ " يطلب الخبز بالدم ويضحك الناس ضحكة ألم ، وإن يبكوا بسبب الموت . ولن ينام بعد ذلك إنسان أبدا جوعان

---

بسببه. قلب الإنسان سيكون خلفه . . . إن الابن أصبح غريما والأخ  
عدوا والرجل قاتلا لأبيه . . . » (١٨٠).

وهكذا سادت الأنانية وتفوق كل إنسان داخل ذاته ولم يعد  
يطلب إلا المأكل والمشرب ولم يعد ممكنا الحصول عليهما إلا  
بالاقتتال ، وبذلك فقد الجميع راحة البال وفتدوا القدرة على النوم  
الهادئ . وأصبح الجميع عدوا للجميع حتى داخل الأسرة الواحدة  
فالأبناء أصبحوا يتقاتلون مع بعضهم البعض ومع آبائهم ! إنها إذن  
أشبه بحالة حرب الجميع ضد الجميع التي وصفها هوبز سائدة بين  
البشر في حالة الطبيعة في كتابه الليفيانتان في القرن السابع عشر  
الميلادي (١٨١) .

والجدير بالنظر هنا أنه يمكن بالفعل المقارنة بين وصف  
نفر وهو لحالة حرب الجميع ضد الجميع في حالة غياب الملك  
القوى - العادل - الإلهي ، وبين نفس الصورة عند هوبز فكليهما  
يرى أن غياب السلطة السياسية القوية يعنى الانهيار والفوضى  
وعودة الناس إلى طبيعتهم الأنانية المتوحشة ، وأن عودة الناس  
إلى الحالة الأخلاقية - المدنية يرتبط بعودة السلطة السياسية القوية .

وإن كان الاختلاف بينهما لا يزال قائما ؛ إذ إن السلطة السياسية عند مفكرنا المصرى القديم هى سلطة العدل والإنصاف والحفاظ على الاستقرار والحريات الفردية ، بينما السلطة السياسية عند هوبز سلطة إنسانية قاصرة قوية لا يعد للأفراد فى ظلها من حقوق إلا حق الحياة والحركة فقط .

لقد برع نفر وهو فى وصف الصورة المتناقضة التى حلت بالبلاد فى ظل وجود الأجانب والأعداء بها حينما قال فى أسى " سوف يمتلئ كل فم " بـ "أحببني" ! ولكن كل ما هو طيب سيكون قد ولى . وتهلك البلاد وتسئ القوانين المناهضة لها، ويحل الضرر بما سبق خلقه والدمار بما كان موجودا فى وقت سابق بحيث يتساوى ما كان قد صنع مع ما لم يوجد قط . ويستولى البعض على ممتلكات رجل لإعطائها للأجنبي القادم من الخارج . إنى أصف لك السيد معوزا والأجنبي راضيا والذي لم يكن أبدا يملأ مخازنه بنفسه لم يعد يملك الآن شيئا . . . " (١٨٢) . إن "من كان ساعده ضعيفا يصبح قوى البأس ، وتقدم التحية لمن كان يقدمها فى الماضى .. إن الإنسان الأقل شأنًا قد صار ذا شأن ، وما كان مقلوبا على الظهر هو الآن

مقلوب على البطن . . . إن الفقير يكس ثروات هائلة . . . والرجل  
البائس يأكل خبز القرايين بينما يعيش الخدم فى فرح . . . " (١٨٣) .

إن هذه التناقضات الاجتماعية والاقتصادية التى حلت بمصر  
سببها الرئيسى ضعف السلطة الحاكمة وانهيار الحكومة المركزية .  
وهذا ما عبر عنه نفر وهو فى أكثر من موضع فى نصه ولخصه  
فى عبارة واحدة حينما قال " تضاءلت البلاد لأن الذين يحكمون  
كثيرو العدد . . . " (١٨٤) .

إن رؤية نفر وهو السياسية تتلخص فى أن الدولة الصالحة  
المثالية هى الدولة التى يحكمها الحاكم القوى - العادل ، وتتمتع  
السلطة المركزية فيها بالاحترام وتهابها الرعية رغم الحب المتبادل  
بينهما . إن الهيبة التى يفرضها الحاكم القوى على رعيته من شأنها  
لم الشمل وإعادة الوحدة للبلاد ، وتحقيق الاستقرار والقضاء على  
الأعداء والأشرار ومن ثم تحقيق العدالة الشاملة التى ينعم الجميع فى  
ظلها بالرخاء الاقتصادى .

وهذه الرؤية هي ما يقدم من خلالها نفر وهو تنبؤاته بشأن المستقبل وهي التي تتحكم في تصورهِ للحاكم الأمثل وبصورة البلاد في عصره . إن الخطاب التفاوضي بشأن المستقبل عند مفكرنا يتولد من قلب الأزمة حالكة السواد التي تمر بها البلاد ، فكما أن النهار يولد من قلب الليل ، والشمس تهتك أستار الظلام وتتغلب عليها ، كذلك فإن الحال التي وصلت إليها البلاد والتي بلغت معها قمة الانهيار والتناقضات والفساد هي التمهيد الطبيعي والأرض الخصبة لظهور المخلص – البطل الذي ما إن يوجد حاملا الآمال والغزَم وقوة الإرادة والقدرة على الفعل حتى تتفاعل معه الناس ويبتهج به الشعب وننتقل البلاد من حال إلى حال ، تنتقل معه من مرحلة الانهيار والتفكك إلى مرحلة جديدة من الوحدة والاستقرار والرخاء .

ولقد قدم نفر وهو في القسم الثاني من برديته وصفا دقيقا لتلك الحالة التي ما إن تصل البلاد فيها إلى الذروة في الانهيار والفساد حتى تكون مهياة لاستقبال ظهور البطل المخلص .

ومن ثم يتركز الخطاب في القسم الثالث على رسم صورة لهذا البطل المثالي المخلص الذي ينتشل البلاد والعباد من الحالة المتردية التي وصلوا إليها .

والطريف أنه يبدأ بتسمية هذا البطل المحلص ، فهو " سوف  
يأتى من الجنوب ، ويدعى " أمينى " صادق القول . . وهو ابن امرأة  
تتحرر من الإقليم الأول من أقاليم الجنوب وقد ولدت فى الوجه القبلى  
" وبالطبع فإن تسميته للملك بهذه الصورة الواضحة تكشف أن صيغة  
التنبؤ التى قدم بها وصفه للحالة المتردبة إنما كانت مجرد تنكير  
بالحالة التى كانت عليها البلاد قبل تولى الملك أمنمحات (أمينى)  
الحكم . ومن ثم فقد كان خطابه العام أنخذل إلى باب الدعاية لفترة  
حكم الملك أمنمحات ، ومن هنا كان ترجيحنا لأن النص قد كتب فعلا  
فى مطلع عصر الأسرة الثانية عشرة التى أسسها الملك أمنمحات  
نفسه .

وعلى أى حال ، فإن ما يعنينا هنا على الصعيد الفلسفى هو  
بيان معالم الصورة المثالية للحاكم كما يراها نقررو هو .

وأول ما يتكشف من هذه الملامح للحاكم الأمثل هى قدرته على  
توحيد البلاد وكسب رضى المجمع الإلهى وخاصة " حورس " و " ست  
" ؛ فهو " سوف يتسلم التاج الأبيض ، ويلبس التاج الأحمر وهكذا يوحد  
للقوتين ، يرصى السيدين " حورس " و " ست " حسب رغبتهما " (١٨٥) .

والمعروف أن حورس وست هما رمز الصراع الأبدى بين الخير والشر وتوازن القوى فى الكون ولهما سطوتهما وتأثيرهما القوى على الفكر السياسى المصرى القديم ، فقد كان " حورس " الإله الذى يحكم السماء والنجوم ذا صلة بالملوك الذين وحدوا مصر العليا ومصر السفلى ، وقد عينته الأقدار إليها ملكيا . ومنذ الأسرة الملكية الأولى أيضا اعتبر أن الملك قد ورث العرش والقوة معا من سيدين هما حورس وست (١٨٦) .

وثانى هذه الملامح أنه القادر على إحكام سلطته المركزية على مقدرات البلاد ؛ إذ " سيكون محيط الحقول فى قبضته " (١٨٧) . والمعروف أن الزراعة كانت هى المورد الأساسى للبلاد وكانت هذه هى المهنة الرئيسية لأبنائها . وعلى الملك القوى أن يمسك بزمام الأمر والنهى فى توزيع حصص المياه على الحقول فى الشمال والجنوب . وإذا ما حدث ذلك فإن هذا يكون مدعاة لسعادة الشعب حيث ان " شعب مصر سيبتهج فى عصره " أما هو " فسيحقق - من جراء ذلك - سمعة طيبة حتى الزمن اللانهائى وإلى أبد الأبدى " (١٨٨) . فالشعب المصرى كان يسعد دائما أن يعيش حياة الاستقرار فى ظل وجود ملك قوى عادل ، والملك للقوى العادل يكتسب بأفعاله الطيبة الخلود والذكرى الطيبة إلى الأبد .

أما ثالث هذه الملامح فهي فدرة هذا الملك على القضاء على الأشرار ومطاردة الأعداء والمتمردين فى طول البلاد وعرضها ؛ " فالذين كانوا يميلون للشر والذين كانوا بخططون للعصيان ، انهوا كلامهم بسبب ما يثيره فى نفوسهم من رعب . وسوف يجهز على الآسيويين ويذبحهم و " التيمحو " (+) سوف بهزمهم لهيبه ، والمتمردون سوف ينزفون غضبه . والرجال من نوى القلوب الفاسدة سينزفون الرعب الذى ينشره الصل (+) الذى على جبينه . . . " (١٨٩) .

إنه إنى القوى على الأعداء والأشرار ، وهو الذى ينشر الرعب بينهم ، فىكون ذلك مدعاة لأن يخضعوا له وأن يتوقفوا عن الكلام الخبيث ، وعن الأفعال الشريرة فىنها نمردهم ويسلموا فىأدهم

---

✽ التيمحو هم شعب كان يعيش فى الغرب من الدلتا فى منطقة لبيا الحالية أنطر هامش (٢٠٠) من نصوص مقدسة ونصوص دنيوية ، ص (١٢٢) . وأطلق عليهم برستند فى ترجمته اسم " اللويون " . أنظر ص ٢١٦ من الترجمة العربية لكتابه : فجر الضمير .

✽ " الصل " المفصود به هنا هو الحية التى يضعها الفرعون على جسده باعتبارها ابنة " رع " أو عين الإله الحارقة أنظر هامش ٢٠٠- ص ١٢٢ من كتاب لالوبت : نصوص مقدسة ونصوص دنيوية .

طواعية له . إنه إنز أقرب إلى ذلك الحاكم " الليفيathan " صاحب السلطة القوية القاهرة عند هوبز . وإن كانت هذه الفوة - القاهرة للأعداء الخارجيين وللأشرار والمتمردين فى الداخل . لا تتعارض عند مفكرنا المصرى القديم مع حنو الملك على شعبه وحرصه على تحقيق السعادة والأمن لهم ؛ فهو الذى " سيبنى " الأسوار التى تمنع الآسيويين من الوصول إلى مصر (١٩٠) . وهو الذى سيجعل هؤلاء الأعداء يعودون إلى طريقتهم المعتادة فى استجداء الماء لى ترتوى منها ماشيتهم (١٩١) .

وهو الذى " ستعود معه " الحقيقة العادلة " إلى مكانها ويطرد الشر إلى الخارج وسيغتبط أولئك الذين سيشهدون ذلك ، الذين سيقون فى صفوف حاشية الملك " (١٩٢) .

إن الإنجاز السياسى الكبير للملك الأمثل الذى يتبأ به نفر وهو يتمثل إنز فى إعادة " الماعت " إلى البلاد ، وفى إعادة السعادة والبهجة إلى كل مصرى سيشهد عصره وينعم بالقرب من حاشيته . وهذا الإنجاز السياسى لن يتحقق إلا بعد أن يقضى هذا الملك على مثيرى الفتنه والشر من أعداء البلاد سواء فى الداخل أو

فى الخارج . والفضاء على هذا يتطلب منه الحزم والحسم فى معاملة أعداء الخارج اللذين هم الآسيويون فى النص السابق بالفضاء المبرم عليهم حتى يعودوا إلى سابق عهدهم فى التلطف إلى ملك مصر وشعب مصر حتى يسمحوا لهم بمجرد الاستفادة من بعض مياه النيل لتروى ظمأهم وظماً أنعامهم . ولكى يأمن الملك تماماً شر هؤلاء الأعداء فإن عليه أن يعيد بناء الأسوار التى تحمى البلاد من غاراتهم واستفزازاتهم فى المستقبل .

والجدير بالذكر أن هذه إشارة إلى ما كان يسمى فى عهد بناء الأهرام بـ" سور الحاكم " الذى كان أشبه بقلعة قديمة لحماية الدلتا الشرقية الواقعة على التخوم الآسيوية ، وقد بنى قديماً لحراسة الطريق من آسيا إلى مصر<sup>(١٩٣)</sup> . والذى يتنبأ به نفر وهو هنا هو أن الحاكم الجديد سيعيد بناء هذا السور ليصبح كما كان من قبل حامياً لحدود البلاد .

إن الحاكم الأمثل فى نبوءة نفر وهو هو إذن الذى يتحلى بخصائص عدة أهمها القوة بمختلف معانيها وخاصة قوة الشخصية ، والقوة فى مواجهة الأعداء سواء فى الداخل أو فى الخارج ، وهذه

---

الفوة بتجلياتها السياسية والعسكرية تتكامل مع ضرورة تحليه بالأخلاق الفاضلة التقليدية لحكام مصر القديمة ، تلك الأخلاق التى تتمثل فى ضرورة تحقيق الماعت والنظام وحماية الناس من الظلم ودفع الشر والأشرار عنهم . وعلى هذا فليقارن المقارنون والمحللون بين صورة الحاكم الأمثل عند نفر وهو ، وبينها عند كل من ابن خلدون ومكيافيللى وهوبز رغم اختلاف ظروف العصر واختلاف المنطلقات والأهداف .